بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

تفسير القرآن باللغة العربية

من كتاب (الأساس والتنوير في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

المصدر الرابع: (اللغة) تفسير القرآن باللغة العربية

ويتضمن هذا المصدر ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سبب جعل العربية مصدرًا للتفسير.

المبحث الثاني: ما المراد من علم العربية في أصول التفسير؟

المبحث الثالث: من القواعد التفسيرية في هذا المصدر.

المبحث الأول: سبب جعل العربية مصدرًا للتفسير:

لماذا صارت اللغة العربية مصدرًا للتفسير؟

الجواب: لا أظنني أكون مبالغًا حين أزعم أن أهمَّ المصادر التفسيرية تفسيرُ القرآن بالعربية، إلا أنه لا ينبغي أن ننسى أن المصدرَ العاصم من الضلال: تفسيرُ القرآن بالسنة، وأما لماذا يُعَدُّ التفسير باللغة أهمَّ المصادر التفسيرية فتبينه لك الأسباب الآتية:

فأما أولاً: فلأن القرآن المجيد نزل بلسانٍ عربيّ مبين؛ فقد قال تعالى ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى جده: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقال عزَّ جاره: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨]، وقال جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] "أي: وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا، بيناه بلغة العرب"(١)، فعربية القرآن حوالة لنا بأن نفهمه وفق هذا اللسان.

ولذا قال الطاهر بن عاشور ﵀ في المراد من الحروف المقطعة في أول السور: "لتُبَكِّت المعاندين، وتسجيلاً لعجزهم عن المعارضة"(٢) كأنه يقول لهم: القرآن الكريم من جنس الحروف التي تنطقون بها، فهو لسان عربي مبين، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين أنه ليس من عند الله.

وأما ثانيًا: فلأن معرفة اللسان العربي يُسهِم في استدرار المعاني الغزيرة التي تئجها الألفاظ القرآنية، وهنا يبرز للمرء سببٌ من أسباب قلة التفسير النبوي اللفظي المباشر للقرآن، فهم يعرفون العربية، فلماذا يفسر النبي ﷺ لهم شيئًا واضحًا، وهو الأمر الذي دعا الألوسي ﵀ ليقول:

"والعجب كل العجب مما يُزْعم أن علم التفسير مضطرٌ إلى النقل في فهم معاني التراكيب، ولم ينظر إلى اختلاف التفاسير وتنوعها، ولم يعلم أن ما ورد عنه ﷺ في ذلك كالكبريت الأحمر، فالذي ينبغي أن يعول عليه أن من كان متبحرًا في علم اللسان مترقيًّا منه إلى ذوق العرفان، وله في رياض العلوم الدينية أوفى مرتع، وفي حياضها أصفى مكرع يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد، وقد غدا ذهنه لما أغلق من دقائق التحقيقات أحسن إقليد، فذاك يجوز له أن يرتقي من علم التفسير ذروته، ويمتطي منه صهوته، وأما من صرف عمره بوساوس أرسطاطاليس، واختار شوك القنافذ على ريش الطواويس، فهو بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وإدراك ما تضمنه من العجب العجاب"(٣).

والألوسي ﵀ يعني أن من يعرف العربية إذا ثوَّر القرآن –أي فكر فيه وتدبره بقوة– سيثور له من المعاني فتح عظيم.

وأما ثالثًا: فلأن اللسان العربي يضبط الأحوال التي يحتملها الرسم المصحفي، فهو الركن الثاني من أركان صحة اعتبار قراءةٍ ما قرآنًا.

وأما رابعًا: فلأن معرفة العربية تكشف المتلاعبين في معاني الألفاظ القرآنية، فعن شعبة ﵀ قال: مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية، مثل الحمار، عليه مخلاة لا علف فيها. ونحوه قال

---

(١) القرطبي (١٦/ ٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/٢٠٤).

(٣) روح المعاني (١/ ٧).

حماد بن سلمة رحمه الله... قال ابن الأنباري رحمه الله: وجاء عن أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم رضوان الله عليهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما بَيَّن صحةَ مذهب النحويين في ذلك، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم، ومن ذلك –ما أسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما– قال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب...»[(١)].

وقد قالوا: التقصير في علم اللغة إخلال بأول فروض الاجتهاد، فأصول الشريعة القطعية، ومصادرها إنما هي الكتاب والسنة والإجماع، واللغة مادة لهذه الأصول؛ لأن الشريعة عربية، فلا بد من القيام بها ليُفهَم عن الله ﷻ مرادُه، فاللغة أصل الأصول، ومادة المواد فكيف يكمل فقه من أخلَّ بها[(٢)].

تأويل ما ورد عن أحمد رحمه الله في ذم الاستشهاد بالشعر في معنى القرآن الكريم:

فكيف يمكن أن نفهم معنى ما ورد عن الإمام أحمد رحمه الله من ذم الاستشهاد بالشعر؟

الجواب: "ما ورد عن أحمد رحمه الله أنه سئل عن القرآن يُمثِّلُ له الرجل ببيت من الشعر، فقال: ما يعجبني فيُحمل على التأويل الفاسد البعيد"، أي "على صرف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا يوجد غالبًا إلا في الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها"[(٣)].

وهذا التأويل يمكن قبوله حال صحة ذلك عن أحمد؛ إذ هذه الرواية عنه تحتاج إلى إثبات، ولذا استنكر الطاهر بن عاشور رحمه الله الاستدلال بهذه الرواية فقال: "وإن صح عنه فلعله يريد كراهة أن يذكر الشعر لإثبات صحة ألفاظ القرآن كما يقع من بعض الملاحدة. روى أن ابن الراوندي – وكان يُزَنُّ بالإلحاد– قال لابن الأعرابي: أتقول العرب لباسَ التقوى؟ فقال ابن الأعرابي: لا باس لا باس، وإذا أنجى الله الناس فلا نجى ذلك الرأس. هبك يا ابن الرواندي تنكر أن يكون مُحَمَّد نبيًّا، أفتنكر أن يكون فصيحًا عربيًّا؟[(٤)].

اذكر أمثلة توضح أهمية اللغة العربية في تفسير القرآن الكريم.

الجواب: هذه أمثلة تنبئك عن أهمية معرفة اللسان العربي في علم الكتاب:

أولاً: مما يشير إلى أهمية هذا المصدر ما جاء عن ابنِ أبي مليكة رحمه الله، قال: قدم أعرابيٌ في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من يقرئني مما أنزل على مُحَمَّد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجل (براءة)، فقال: (أن الله بريء من المشركين ورسولِه) بالجر. فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ فإن

(١) تفسير القرطبي (١/ ٥٦).

(٢) اللمع في أصول الفقه (ص: ٧٠).

(٣) البرهان (٢/ ١٦٠)، وانظر: روح المعاني (١/ ٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٩).

يكن الله برئ من رسوله، فأنا أبرأ منه. فبلغ عمرَ ﷺ مقالةُ الأعرابي، فدعاه، فقال: يا أعرابي، أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن. فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورةَ (براءة)، فقال: (أن الله بريء من المشركين ورسولِه)، فقلت: أو قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه. فقال عمر ﷺ: ليس هكذا -يا أعرابي- قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٣]، فقال الأعرابي: وأنا -والله- أبرأ مما بَرِئ الله ورسوله منه. فأمر عمر بن الخطاب ﷺ: أَلَا لا يُقرئُ الناسَ إلا عالمٌ باللغة[(١)].

ووجه الاستشهاد بهذا المثال أن كلمة ﴿ورسوله﴾ في المصحف تحتمل الجر وتحتمل الرفع باعتبار أن التشكيل لم يكن موجودًا في العصور الأولى، واللسان العربي يخبرك باستحالة قراءة الجر؛ لأنها تنافي أصل الإسلام.

وقد قيل: أمر عمر ﷺ أبا الأسود الدؤلي ﷺ فوضع النحو، وقيل: الآمر علي ﷺ، وقال مالك بن أنس ﷺ: «لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب، إلا جعلته نكالاً»[(٢)]، وقال مجاهد ﷺ: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله، إذا لم يكن عالما بلغات العرب»[(٣)].

ثانيًا: قال الأصمعي ﷺ: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو يخلف الله وعده؟ قال: لا! قال: أفرأيت إن وعد الله على عمل عقابًا يخلف وعده؟

-هو من فرقة المعتزلة الذين يقولون: يجب على الله أن يعاقب المسيء، ولا يجوز له العفو-

قال له أبو عمرو: من العُجْمة أُتيتَ يا أبا عثمان. إن الوعدَ غير الوعيد. إن العرب لا تَعُدُّ خَلْفًا ولا عارًا أن تَعِدَ شرًّا ثم لا تفعله، بل ترى أن ذلك كرمٌ وفضلٌ. إنما الخلف أن تعد خيرًا ثم لا تفعله. قال: فأوجدني هذا في كلام العرب. قال: أما سمعت:

ولا يرهبُ ابنُ العم ما عشتُ صولتي ولا أختي من خشية المتهدد

وإني إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[(٤)]

ومما يدل على المعنى الذي أراده أبو عمرو قول كعب بن زهير[(٥)]:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) الأثر: أسنده في تاريخ دمشق (٢٥/ ١٩٢)، وذكره صاحب كنز العمال (٢/ ٤٤٧)، وعزاه إلى ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء (٣٩/١)، ونقله القرطبي في تفسيره (١/ ٥٦).

(٢) شعب الإيمان (٣٠١/٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٢).

(٤) تهذيب التهذيب (٨/ ٦٣)، التبصير في الدين (ص: ١٨٧).

(٥) ديوان كعب بن زهير (ص: ٦٥)، وفيه (أنبئت) بدلًا من (نبئت).

ثالثًا: ولما رأى الشوكاني ﵀ مفسِّرًا كالسدي حمل بعض كلمات الكتاب العزيز على غير ما تحتمله اللغة عقب عليه بقاعدة كلية نافعة في هذا الباب، ففي تفسير الأمانة المذكورة في (سورة الأحزاب:٧٢) نقل الشوكاني ﵀ رأي السدي بأن الأمانة: هي ائتمان آدم ﵇ابنه قابيل على ولده هابيل وخيانته إياه في قتله، ثم نقده نقدًا لاذعًا بقوله: "وما أبعد هذا القول! وليت شعري ما هو الذي سوغ للسدي تفسير هذه الآية بهذا، فإن كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل... وإن كان تفسير هذا عملًا بما تقتضيه اللغة العربية فليس في لغة العرب ما يقتضي هذا ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان في أول هذا العالم، وإن كان هذا تفسيرًا منه بمحض الرأي، فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به، ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن برأيه" ثم وضع قاعدة كلية لتفسير القرآن بما تقتضيه العربية فقال: "فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير، واشدد يديك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربي كما وصفه الله ﷻ؛ فإن جاءك التفسير عن رسول الله ﷺ فلا تلتفت إلى غيره، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وكذلك ما جاء عن الصحابة ﭫ فإنهم من جملة العرب، ومن أهل اللغة، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها فخذ هذه كلية تنتفع بها"[(١)]، وقبله ردَّ الزمخشري ﵀ على من يغض من أهمية معرفة العربية[(٢)].

ما الأهداف العامة التي لأجلها نزل القرآن بلسان عربي مبين؟

الجواب: يمكن أن نقرر مجمل أهداف النزول القرآني بلسان عربي مبين:

ليتعقل المخاطَبون المعنى، وليستبين المنزل إليهم، ولعلهم يتذكرون، وجعله اللهُ مُيَسَّرًا للتبشير والإنذار، وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله–:

نَـــزَلَ سَهْـــلاً عَـــرَبِيَّ المبْـــنَى ... لِـــيَفْهَم الْمُخـــاطَبونَ الْمَعْـــنَى

ويَسْـــتَبِينَ لَهُـــمُ الـــذِي نَـــزَلْ ... مُيَسَّـــرًا للذِّكْـــر بَعْـــدَمَا عُقِـــلْ

مُبَـــشِّرًا للمُتَّقِـــينَ مُنْـــذِرَا ... لِلْغَـــيْرِ مِمَّـــنْ قـــدْ عَصَـــى أوْ كَفَـــرَا

قاعدة: القرآن نزل بلسان عربي مبين، فلا يمكن إدراك معانيه ومراميه إلا عن طريق هذه اللغة، وتفسيرُه بغيرها تحريف للكلم عن مواضعه:

فقد ظهر لنا بعض المتشدقين في وسائل التواصل يفتخر بأنه يفسر القرآن بغير العربية كالعبرية والآرامية، وحسبك هنا أن الله ﷻ يرد على من يزعم وجود عُجمةٍ أو كلماتٍ تُفهمُ بلسان أعجمي، فيقول في تقرير واضح يدمغ الذين يدعون ذلك: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ما علاقة نزول القرآن بلسان عربي بمقاصد الشريعة؟

---

(١) فتح القدير(٤/ ٤٣٧).

(٢) المفصل في صنعة الإعراب (ص: ١٨).

الجواب: تفسير القرآن بالعربية من أعظم الأسس التي تحفظ الشريعة، وعندما حاول شيخ المقاصديين أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ) ﵀ أن يحصر المقاصد التي يُنظَرُ فيها من جهة الشارع حصرها في أربعة أنواع:

قَصْد الشَّارِعِ فِي وَضْعِ الشَّرِيعَةِ ابْتِدَاءً، وقَصْده فِي وَضْعِهَا لِلْأَفْهَامِ، وقَصْده فِي وَضْعِهَا لِلتَّكْلِيفِ بِمُقْتَضَاهَا، وقَصْده فِي دُخُولِ الْمُكَلَّفِ تَحْتَ حُكْمِهَا[١]، فلما تكلم عن قَصْدِ الشَّارِعِ فِي وَضْعِ الشَّرِيعَةِ لِلْإِفْهَامِ قال: "إنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْمُبَارَكَةَ عَرَبِيَّةٌ، لَا مَدْخَلَ فِيهَا لِلْأَلْسُنِ الْعَجَمِيَّةِ"، ثم قرر أن الْقُرْآن نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ عَلَى الْجُمْلَةِ، فَطَلَبُ فَهْمِهِ إنَّمَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ خَاصَّةً، وقال: "فَمَنْ أَرَادَ تَفَهُّمَهُ، فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يُفْهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إلَى تَطَلُّبِ فَهْمِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْجِهَةِ".

ويقول الشاطبي ﵀ أيضًا مقررًا حقيقة استحضار عربية القرآن عند تطلب تفسيره والاستنباط منه: "أنه في ألفاظه، ومعانيه، وأساليبه، عربي بحيث إذا حقق هذا التحقيق، سُلك به في الاستنباط منه، والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها، ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة، فإنَّ كثيرًا من الناس يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها، لا بحسب ما يفهم من طريق الوضع، وفي ذلك فساد كبير، وخروج عن مقصود الشارع"[٢].

فإذا جاء من يفسره بالعبرية أو بالآرامية نقول له: فما فائدة نزوله بالعربية؟

قاعدة: عربية القرآن كلية جميعية وليست كلية مجموعية، والفرق بينهما: أن الكلية الجميعية تشمل كل كلمة فيه، فليس فيه كلمة تنتمي إلى غير العربية، أما المجموعية فتعني أن كلمات القرآن عربية في الجملة، وفيها ما ليس كذلك:

فتقرر بالأدلة السابقة أن عربية القرآن كلية جميعية، وما ذكروا أنه ينتمي إلى غير العربية، فهم يعنون أن أصله يحتمل أن يكون غير عربي، لكنه صار مُعَرَّبًا، فلم يخرج عن نطاق عربية القرآن في فهمه، ولذا تصرفوا فيه وفق قواعدهم، وقد ذكروا أنه وقع في القرآن مائة كلمة من المعرَّب، وللسيوطي كتابان: المتوكلي، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب.

وهذا المصدر –إن جعلناه نصبَ العين مع المصادر الثلاثة السابقة– من أعظم المصادر التي تحافظ على المعنى القرآني، كما أراده الله تعالى بعيدًا عن تلاعب المتلاعبين.

من أجل ذلك رأينا الحملةَ المسعورة للمطالبة بفهم القرآن وفق ما يسمى باللغات السامية، أو وفق الفهم الآرامي أو السرياني، فانظر كيف استبانت محاولات القوم لتطوير فكرة المشركين القديمة: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥][٣].

---

(١) الموافقات (٢/ ٨).

(٢) الموافقات (١/٤٤).

(٣) وقد اجتمع الموتورون ليخرجوا ضغائنهم ضمن قالب علمي، فانظر رجيعهم مثلاً في كتاب: (القرآن في محيطه التاريخي)، الذي يشيد بمحاولة النضر بن الحارث العصري الذي سمى نفسه كريستوف لكسنبرغ الألماني المشهور بكتابه: (قراءة آرامية سريانية للقرآن)، افترض فيها كتابة أجزاء من القرآن باللغة السريانية، وقد صرحوا بأهدافهم في نزع المعنى القرآني لأنه –كما تذكر تحريفاتهم– قنبلة موقوتة.. للأسف ابتلع بعضنا

بناء على هذا الأصل الكبير فلا يمكن أن يعمى علينا معنى كلمةٍ في القرآن المجيد؛ بزعم أنها جاءت بلسان غير عربي، ولا يحق لنا أن نطلب معناها بلسان غير اللسان العربي، إلا أن يكون ذلك المعنى على سبيل الطرافة أو الملاحة لا على سبيل تطلب المعنى الأصلي، وهنا ربما تسأل عما ورد عن السلف –رحمهم الله تعالى– في تطلب معنى بعض الألفاظ القرآنية في لسان غير عربي، مثل ما رواه ابن جرير وغيره عن ابْن عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فِي قَوْله: ﴿طه﴾ قَالَ: يَا رجل، ووردت عنه روايات متضاربة مختلفة في ذلك أن هذا التفسير بالنبطية، وفي رواية بالسريانية، وفي رواية عند الحاكم قَالَ: هُوَ كَقَوْلِك يَا مُحَمَّد بِلِسَان الْحَبَش[1].

والجواب: أننا نحتاج أن نعرف مدى قبول الرواية أولاً، وثانيًا: لو كانت الرواية مقبولة، فهو تقريب للمعنى وليس تطلبًا لذلك المعنى من لغة أخرى، ولو كان يُطلب المعنى من لغة أخرى لارتاب المبطلون من وثنيي العرب وضجوا، وردوا على عربية القرآن، وقالوا: تأتينا بكلام أعجمي، وهنا تدرك رد المفسرين على من يدعي ذلك، فخذ مثالاً واحدًا، فقد ذكر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)رحمه الله في معنى الطور قولاً صحيحًا بأنه الجبل، ثم ذكر أن بعضهم ادعى أن اللفظة سريانية، وعقب على ذلك فقال: " فإن صح ذلك فهو وفاق وقع بين لغتهم ولغة العرب؛ لأنه لا يجوز أن يوجد في القرآن إلا ما تكلمت به العرب، وهذا مما تكلم به العرب، قال العجاج:

دَانَى جَنَاحَيْـــهِ مـــن الطُّـــورِ فَمَـــرْ .....

علوم اللغة في خدمة الحقيقة القطعية (حفظُ القرآن الكريم):

كل علوم العربية الإثني عشر[3] إنما وضعت ونمت وترعرعت لتكون مُعينةً على حفظ القرآن الكريم، وهذه حقيقةٌ طالما حاول أصحاب الغشاوة المعاصرة أن يبعدوها عن واقعها، ويجعلوا علوم العربية بمعزلٍ عما أُنشئت له، وهو حفظ القرآن الكريم لفظًا ومعنىً، ولنسمع إلى شيخ الصناعة العربية ابن هشام رحمه الله في مقدمة (مغني اللبيب) يبين أنه لم يُنشئ أعظم كتبه في العربية إلا لتلك الغاية؛ إذ يقول: "فَإِن أولى مَا تقترحه القرائح، وَأَعْلَى مَا تجنح إِلَى تَحْصِيله الجوانح مَا يَتَيَسَّرُ بِهِ فهم

الطعم، فانبرى بعض المشدوهين أو الجاهلين من أبناء المسلمين لتستهويهم فكرة تفسير القرآن بلغةٍ سريانية، أو عبرية! وسمعت بعضهم ممن جعل نفسه في مقدمة المبشرين بالثقافة الصهيونية يتباهى بمعرفته بالعبرية، والسريانية، ويتعجب: لماذا لم يفطن العلماء المتقدمون لتفسير القرآن بغير لغته!!!.

(١) انظر مثلاً: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٥/ ٥٥٠)، والحديث عند الحاكم (٣٤٢٧)، وقال:" صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مختصر صحيح البخاري (٢٢٥/٣)، ورواه البخاري في صحيحه (١١٩/٦) معلقًا عن ابن جبير والضحاك: بالنبطية ﴿طه﴾: يا رجل

(٢) التفسير البسيط (٢/ ٦٢٩)، والبيت للعجاج، يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر. ديوان العجاج (ص: ٨٣)، وعجز البيت: تَقْضِّي البَازِي إِذَا البَازِي كَسَر.

(٣) التي جمعها الشيخ أحمد الهاشمي في قوله:

نحوٌ وصرفٌ عروضٌ ثم قافيةٌ***وبعدها لغة قرضٌ وإنشـــاء

خط بيان معان مع محاضرة ***والاشتقاق لها الآداب أسمـاء

كتاب الله الْمنزل، ويتضح بِهِ معنى حَدِيث نبيه الْمُرْسل ﷺ؛ فَإِنَّهُمَا الْوَسِيلَةُ إِلَى السَّعَادَة الأبدية، والذريعةُ إِلَى تَحْصِيل الْمصَالح الدِّينِيَّة والدنيوية، وأصل ذَلِك علم الْإِعْرَاب الْهَادِي إِلَى صوب الصَّوَاب"[(١)].

ويمكن لنا أن نقرر بناء على كل ما سبق؛ أن العربية أصل المصادر التفسيرية، إلا أن العرفَ العربي يتقيد بالتخصيصات التي نجدها في العرف القرآني والنبوي.

ومن أجل ذلك نرى صنيع إمام المفسرين الطبري ﷺ مدهشًا؛ إذ هو يبدأ بالمعنى اللغوي، ويبين شواهده من العربية، ثم يقول: وبنحو الذي قلنا قال أئمة التأويل، وانظر صنيعه مثلاً عند قوله تعالى ذكره: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣][(٢)].

المبحث الثاني: ما المراد من علم العربية في أصول التفسير؟

يضع ابنُ قتيبةَ ﷺ قاعدةً في كيفية فهم عربية القرآن، فيقول: "القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللّقِن، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي"[(٣)]، والمراد من علم العربية: "معرفةُ مقاصدِ العرب من كلامهم، وأدبِ لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانَيهم، أم حصلت بالتلقي، (أو بـ) التعلم، كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب، ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان، ودونوها"[(٤)]، وذلك لأن القرآن كلام عربي، فكانت قواعد العربية طريقًا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط، وسوء الفهم"[(٥)].

ومن لطائف التفسير جريًا على أساليب العرب أن بعضهم فكر في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فلقي سمنون[(٦)]، فسأله عنها فتأوه، وأنشأ يقول:

ويَقبُح من سواك الفعل عندي فتفعلُه فيحسنُ منك ذاكا

فقال السائل: يا سمنون، سألتك عن آيةٍ في كتاب الله، فأجبتني ببيت من الشعر! فقال له سمنون: أنشدته لتعلم أن في أقلِّ قليلٍ أدلَّ دليل. ثم قال له: يا هذا، إمهاله لهم مع مكرهم مكرٌ

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ١٢).
(٢) تفسير الطبري (٥٣٢/٩).
(٣) تأويل مشكل القرآن (ص: ٥٨).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ٧).
(٦) لعله: سمنون بن حمزة.

بهم. ولذا قال في موضع آخر: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وفيما هدد الله ﷻ به الثقلين في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] سأل بعضهم عن مخرج هذا الكلام في حق الله تعالى، وقال: هل الله تعالى في شغل حتى يفرغ منه؟ وهو يعني: أن الله ﷻ لا يعجزه شيء، ولا يعيه شيء، فلا يؤوده حفظ السماوات والأرض، ولا يحتاج إلى أن يفرغ لأنه محيط بالعالم.

فقيل له: إنما هذا على معنى الإمهال لا على معنى الاشتغال، فإنه سبحانه كل يوم هو في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، ومخرج هذا الخطاب الوعيد والتهديد أي سنعمد إلى مجازاتكم بعد أن أمهلناكم وأملينا لكم[١].

والبيت الذي قاله سمنون من أبيات ذكرها الألوسي عند الكلام على المكرين، فقال: وقد سئل بعضهم كيف يمكر الله؟ فصاح وقال: لا علة لصنعه وأنشأ يقول –فذكر البيت وقبله بيتين[٢].

أهمية معرفة الفروقِ اللغويةِ الدقيقةِ:

قاعدة: معرفة الفروقِ اللغويةِ الدقيقةِ تقي من المزالقِ العميقة:

قرر الطوفي ﷺ أن القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم، وهي مشتملة على الواضح وغير الواضح، وكلاهما بليغ في موضعه، فلو خلا القرآن من أحدهما؛ لكان مقصرًا عن رتبة اللغة، فلا يصلح للإعجاز، ثم بين أن الواضحَ يُتعبد المكلفون به على الفور، وغير الواضح يتعبد العلماء في استخراج معناه؛ لأن العمل بالمفهوم منه، والإيمان بغير المفهوم منه تعبدان صحيحان، يحصل بهما تمييز الطاعة من العصيان، والكفر من الإيمان[٣]، وهذا التقريرُ يدعو إلى الاجتهاد في معرفة اللغة؛ لئلا يقع المرء في المزالق نظرًا لسهوٍ، أو شرود، أو غفلة، أو جهلٍ كما وقع لجماعةٍ من الكبار، فروى الخطابيُّ ﷺ عن أبي العالية أنه سُئل عن معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، فقال: هو الذي ينصرف عن صلاته ولا يدري عن شفعٍ أو وترٍ. قال الحسن ﷺ: مه يا أبا العالية! ليس هكذا، بل الذين سهوا عن ميقاتها حتى تفوتهم. ألا ترى قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فلما لم يتدبر أبو العالية ﷺ الفرق بين حرفي: (في وعن) تنبه له الحسنُ – رحمهما الله–، وقال ابن قتيبة ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]، أنه من عَشوتُ أعشو عشوًا إذا نظرت. وغلطوه في ذلك، وإنما معناه: يُعرِض. وإنما غلط؛ لأنه لم يفرّق بين عَشوتُ إلى الشيء، وعشوت عنه[٤].

---

(١) حز الغلاصم (ص: ٣٩).

(٢) روح المعاني (٣/ ١٩٢)، والأبيات للمتنبي.

(٣) الإكسير في علم التفسير لسليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري (ص: ٣٣).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/٢٩٤).

ويذكر ابن قتيبة ﷺ مثالاً شهيرًا على محاولة **(استكراه التأويل)** –وهو اصطلاح درج عليه ﷺ– بذكر معانٍ ليست مرادة من اللفظ، ترجع إلى دقةٍ في المرادات اللغوية، فيقول: "يستوحش كثير من الناس من أن يُلحقوا بالأنبياء ذنوبًا، ويحملهم التنزيه لهم، صلوات الله عليهم، على مخالفة كتاب الله جلّ ذكره، واستكراهِ التأويل، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التي لا تخيل عليهم، أو على من علم منهم – أنّها ليست لتلك الألفاظ بشكل، ولا لتلك المعاني بلِفْقٍ.

كتأوّلهم في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، أي: بَشِمَ من أكل الشجرة. وذهبوا إلى قول العرب: غوى الفصيل: إذا أكثر من اللبن حتى يبشَم. وذلك غوى –بفتح الواو– يغوي غيًّا. وهو من البشم غوي –بكسر الواو– يغوِي غوىً. قال الشاعر يذكر قوسًا:

معطّفة الأثناء ليس فصيلها ... برازئها درًّا ولا ميّتٍ غوَى

وأراد بالفصيل: السّهم. يقول: ليس يرزؤها درًّا، ولا يموت بشمًا، ولو وجدوا أيضًا في (عصى) مثل هذا السّنن لركبوه، وليس في (غوى) شيءٌ إلا ما في (عصى) من معنى الذّنب؛ لأن العاصي لله التّارك لأمره غاوٍ في حاله تلك، والغاوي عاص. والغيّ ضدّ الرّشد، كما أن المعصية ضد الطاعة"[1].

وفي هذه القاعدة يقول الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله–:

عِلْمُ فُرُوقِ اللُّغةِ الدَّقيقةْ ... يَقِي مِنَ المزالِقِ العَمِيقَةْ

أهم المصادر اللغوية التي يُرجع إليها لمعرفة الدلالات والجذور اللغوية:

١) (كتاب العين) لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ).
٢) (معجم مقاييس اللغة) لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي (ت٣٩٥هـ).
٣) (لسان العرب) لأبي الفضل مُحَمَّد بن مكرم بن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ)،
٤) (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لأبي مُحَمَّد عبد الله بن يوسف بن هشام (ت٧٦١هـ).
٥) (القاموس المحيط) لأبي طاهر مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت٨١٧هـ).
٦) (تاج العروس من جواهر القاموس) لأبي الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزّبيدي (ت ١٢٠٥هـ).
٧) وأسهلها (مختار الصحاح) لزين الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ).

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ٢٣٠)، والبيت لعامر المجنون، كما في تاج العروس (٣٩/٢٠٠).

ومعنى كلمة "القاموس" البحر العظيم، والقَمْس الغوص، و"القُمُوس"هي"بئر تَغِيبُ فيها الدِّلاء من كثرة مائها، أما القاموس فهو معظم ماء البحر. فأطلق كثير من علماء اللغة العربية الذين حاولوا جمع اللغة على أعمالهم أسماء من أسماء البحر، نحو: المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، وابن عباد الذي سمى معجمه باسم: "المحيط"، وأول من سمى معجمه بالقاموس هو الفيروز أبادي (ت ٨١٧هـ) صاحب "القاموس المحيط".

المبحث الثالث: من القواعد التفسيرية في هذا المصدر:

القواعد التفسيرية اللغوية(١):

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

١
الأصل حمل الكلام على مقتضى الظاهر معنىً ونظمًا ولا يُحمل على غير الظاهر إلا لقرينة

٢
ترد صيغة (فعال) إما للمبالغة وإما للنسبة على حسب السياق

٣
قد يوجد في القرآن الكريم ما يُفَسَّرُ على المعنى القليل من لغة العرب

٤
لا بد من اتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم

٥
يجب وصل معاني الكلام بعضه ببعض ما وجد إلى ذلك سبيل

قاعدة: الأصل حمل الكلام على مقتضى الظاهر معنىً ونظمًا، ولا يُحمل على غير الظاهر إلا لقرينة:

وهذا القانون من أعظم قوانين فهم القرآن المجيد، ولذا ردَّ الإمام الطبري ﷺ بعض التأويلات؛ لأنها جاءت على خلاف مقتضى الظاهر إما معنى وإما نظمًا، وقَعَّد لذلك فقال رافضًا أحد المعاني: "وتأويل القرآن على المفهوم الظاهرِ الخطاب دون الخفي الباطن منه، حتى تأتي دلالة –من الوجه الذي يجب التسليم له– بمعنىً خلافَ دليله الظاهر المتعارف في أهل اللسان الذين بلسانهم نزل القرآن، أولى"[(١)].

فإن قلت: هلَّا ضربت لنا بعض الأمثلة على هذه القاعدة؟

الجواب: من الأمثلة التي توضح ذلك:

المثال الأول: قوله تعالى جده: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة: ٢]:

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٥٧).

لا هنا للنفي، فهو خبر، ولكن معناه النهي عند بعض المفسرين، أي لا ترتابوا فيه[١]، فخرج عن مقتضى ظاهر النفي إلى النهي، ولكن الأصل هو النفي، ويكون المعنى: إنه الكتاب الوحيد الذي لا ينبغي أن يوجد فيه ريب.

وتفسير القرآن على غير ظاهره خلاف الأصل، ولا ينبغي أن يُلجأ إليه إلا لقرينة تدل على ذلك، ومن أعظم منافع هذا القانون: نفي التفسير الباطني.

المثال الثاني: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠]، نحمله على ظاهره، وترسُم لنا البصائر القرآنية المصادر العامة التي تمد (الطغيان العامه)، فما هذه المصادر؟

المصدر الأول: ترك أصحاب الطغيان العامه دون عقوبة رادعة كاملة، فيزدادون عتوًا وغرورًا واستكبارًا، وقد ذكر الله جل ذكره هذه المرتبة، فقال: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠]، يعني نذرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم.

المصدر الثاني أن يَمدهم الله ﷻ أي يزيدهم من جنس مصادر القوة والثروة التي معهم، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥][٢].

المصدر الثالث: أن يحدث لهم الإمداد بمصادر قوة وثروة من غير جنس القوى والثروات التي معهم، ومن المدد أن يصبح بإمكانهم تكوين الأتباع، فيصرون على اتخاذ أتباع الغي، كما قال جل ذكره: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢][٣]، على قراءة ضم الياء وكسر الميم[٤]، فالإمداد هنا جاء بقوى وثروات يزودهم بها إخوان لهم في الغي يصير شغلهم الشاغل أن يزيدوهم انحرافًا بأفكار شيطانيةجديدة في الإجرام والإفساد في الأرض.

وقد مال الطبري ﷺ إلى ترجيح أن يكون المعنى في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: أن يكون بمعنى: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتوّهم وتمردهم، كما وصف ربُّنا أنه فعل بنظرائهم في قوله ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠] يعني نذرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم.

---

(١) ينظر: تفسير الثعلبي (١/١٤٢).

(٢) وهكذا تراني أخالف الطبري ﷺ عندما جعل المدد والإمداد بمعنى الترك والإمهال، فرأيه لا يمكن أن يبين قوة كل كلمة قرآنية في موضعها، وكذلك ذهب الزمخشري ﷺ، وغرّد بعيدًا عن الطبري في التفاصيل، لكنه اتفق معه على ترك الظاهر ها هنا، فقال: "فإن قلت: فما حملهم على تفسير المدّ في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ قلت: استجرّهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام –لأن الأرْوَى تسكن شَغَفَ الجبال، وهي شاء الوحش، والنعام تسكن الفَيَافي، فلا يجتمعان–، ثم قال: "ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدّي سليمًا من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل". ينظر: تفسير الطبري (١/٣٠٧)، الكشاف (١/٦٨).

(٣) وهذه الآية في سورة الأعراف تبطل الضابط الذي حُكِي عن يونس الجَرْمِيّ أنه كان يقول: ما كان من الشر فهو "مدَدْت"، وما كان من الخير فهو "أمْدَدت". ثم قال: وهو كما فسرت لك، إذا أردت أنك تركته فهو "مَدَدت له"، وإذا أردت أنك أعطيته قلت: "أمْددت". فهذا ليس الذي يقوله ليس مطردًا؛ لأن هذه الآية في سورة الأعراف وردت بالقراءتين: بفتح الياء وضمها.

(٤) قرأ المدنيان، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بالنون، وقرأ الباقون بالياء، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بجزم الراء، وقرأ الباقون برفعها. النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٧٣).

والذي يظهر لي أن ما قرره الطبري ﷺ معنى أثبته القرآن، ولكن الذي يثبت هنا معنى زائد يتحقق في هؤلاء العابثين بمعاني الإيمان، وهو أن يمدهم على الحقيقة بخيرات الدنيا كما قال جل مجده ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥].

اضرب لنفسك مثالاً بفرعون وقومه: فالله ﷻ يسلط عليهم العقوبات ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ فهل اعتبروا؟ لا بل وصف الله ﷻ حالهم فقال: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف ١٣٣] فأمدهم الله ﷻ في طغيانهم بأن زاد تمكنهم وقوتهم، ولذا أتبعوا بني إسرائيل مشرقين بكل قوة وتمكن، وهناك كانت نهايتهم.

المثال الثالث، وهو قاعدة: الأصل أن الآيات والكلمات مرتبة ترتيبًا محكمًا؛ لأن ذلك مقتضى الظاهر، فإن زُعِمَ أن منها ما هو مقدم وحقه التأخير، أو مؤخر وحقه التقديم، فكل ذلك لا بد له من قرينة قوية:

وخذ من كلام الطبري ﷺ ما يوضح ذلك:

فقد قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى: ٤، ٥]: "وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخَّر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى: أي أخضر إلى السواد، فجعله غثاء بعد ذلك، ويعتلّ لقوله ذلك بقول ذي الرُّمة[1]:

حَوَّاءُ قَرْحَاءُ أَشْرَاطِيَّةٌ وَكَفَتْ فِيهَا الذِّهَابُ وَحَفَّتْهَا الْبَرَاعِيمُ

وهذا القول وإن كان غير مدفوعٍ أن يكون ما اشتدّت خضرته من النبات، قد تسميه العرب أسود، غير صواب عندي بخلافه تأويل أهل التأويل في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه، أو تأخيره، فأما وله في موضعه وجه صحيح فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير"[2]، وقد تواردت على تقرير هذه القاعدة أقاويل أهل العلم، يقول أبو عمرو الداني: "التقديم والتأخير لا يصح إلا بتوقيف أو بدليل قاطع"[3]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: "والتقديم والتأخير على خلاف الأصل؛ فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه، لا تغيير ترتيبه. ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب"[4].

---

(١) ديوان ذي الرمة (ص: ٣٩٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/٣٧٠).

(٣) المكتفى في الوقف والابتداء، للداني، (ص ١٥٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢١٨).

المثال الرابع: قوله تعالى ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فإن ظاهرَه اللُّغويَ وجوب القصاص حتمًا، مع إجماع المسلمين أن القصاص ليس بواجبٍ، فللولي العفو في كثيرٍ من الحالات.

والجواب: يحتمل معنى الآية عدةَ احتمالات تخرجها عن الظاهر اللغوي المباشر:

منها: أن المراد من الآية أن الله ﷻ فرض علينا عدم تجاوز القتيل إلى غيره في القصاص، فليس المراد بالفرض الجملةَ الأولى منها، بل الأولى مع الثانية، فالحر إذا قتل الحر، فدم القاتل كفءٌ لدم القتيل، والقصاص منه دون غيره من الناس، فلا تتجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يَقتل، فإنه حرامٌ عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غير قاتله، والفرض الذي فرض الله ﷻ علينا في القصاص هو تركُ المجاوزة بالقصاص: قتل القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنه أوجب علينا القصاص فرضًا وجوبَ فرض الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركه، والدليل الذي أخرج الظاهر اللغوي إلى التأويل قوله تعالى ذكره: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ [البقرة: ١٧٨][(١)].

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم ٦١]، ففي قوله ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ قال النسفي ﷺ صاحب التيسير: "أي يأتيه الموعود له ويبلغه"، ثم قال: "ومن جعله بمعنى الآتي فهو خلاف الوضع –يعني خلاف الترتيب الموضوع الظاهر–، وما قلناه أحسن؛ لأنه مراعاة الوضع–أي على مقتضى الظاهر في الترتيب– وما أتاك فقد أتيته"[(٢)]، بل إنك عندما تزعم أن ﴿مأتيًا﴾ بمعنى آتيًا تنزع عنه تصويرًا بليغًا عظيمًا في إثبات القدر.

ويمكن أن نختتم الأمثلة هنا بأن نفيد من إمامٍ لغوي من مهرة أئمة الدنيا في العربية، ونتعجب منه؛ إذ يذهب إلى غير ذلك في بعض تطبيقاته، فقد ذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ ﷺ إِلَى أَنَّ ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النساء: ١٠٣] بِمَعْنَى آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ، فَجَعَلَ قَضَاءَ الصَّلَاةِ فِيهَا عِبَارَةً عَنْ أَدَائِهَا، وَالذِّكْرُ بِمَعْنَى الصَّلَاةِ، وَالْمَعْنَى: فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فِي حَالِ الْخَوْفِ وَالْقِتَالِ فَصَلُّوا قِيَامًا مُسَايِفِينَ وَمُقَارِعِينَ، وَقُعُودًا جَاثِينَ عَلَى الرُّكَبِ مُرَامِينَ، وَعَلَى جُنُوبِكُمْ مُثْخَنِينَ بِالْجِرَاحِ، وَفَسَّرَ الِاطْمِئْنَانَ بِالْأَمْنِ، وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ بَعْدَهُ بِقَضَاءِ مَا صُلِّيَ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ، أَيِ: الْقَضَاءِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي الْفِقْهِ، وَهُوَ إِعَادَةُ الصَّلَاةِ بَعْدَ فَوَاتِ وَقْتِهَا، وَجَعَلَ الْآيَةَ بِهَذَا حُجَّةً لِلشَّافِعِيِّ ﷺ فِي إِيجَابِهِ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُسَافِرِ فِي حَالِ الْقِتَالِ فِي الْمَعْرَكَةِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ، ثُمَّ قَضَائِهَا فِي وَقْتِ الْأَمْنِ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ ﷺ الَّذِي يُجِيزُ تَرْكَ الصَّلَاةِ فِي حَالِ الْقِتَالِ وَتَأْخِيرَهَا إِلَى أَنْ يَطْمَئِنَّ، وَقَدْ خَرَجَ الزَّمَخْشَرِيُّ ﷺ بِهَذَا عَنِ الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ مِنَ اسْتِعْمَالِ لَفْظَيِ الْقَضَاءِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ الدَّقِيقُ فِي فَهْمِ اللُّغَةِ، وَتَفْسِيرُ

(١) تفسير الطبري (٢/ ١٠٧).

(٢) التيسير في التفسير للنسفي (١٠/٢٢٠).

أَكْثَرِ الْآيَاتِ بِمَا يُفْصِحُ عَنْهُ صَمِيمُهَا الْمَحْضُ أُسْلُوبُهَا الْغَضُّ، فَسُبْحَانَ الْمُنَزَّهِ عَنِ الذُّهُولِ وَالسَّهْوِ[١].

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله–:

والأصلُ في الكَلامِ حَمْلُهُ على ظَاهِرِهِ بِدون أن يُؤَوَّلاَ

وخارجٌ عن مقْتَضى الظَّاهِرِ لاَ بُدَّ لَه مِنْ سَببٍ قَدْ حَصَلا

وزاد سعيد بن دحباج، فقال:

وحملُهُ لغيرِ ظاهرٍ فلا بُدَّ من القرينةِ ليُقْبَلا

قاعدة: الأصل أن الاستعمال القرآني على مقتضى الظاهر إلا في النادر، فيجب أن يُعد ما ورد من الأساليب القرآنية مما ورد على النادر في العربية قاعدة لغوية مستقلة:

ومثال ذلك:

وردت كلمة ﴿ظلَّام﴾ في معرض النفي في خمسة مواضع من القرآن المجيد مثل قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقد خرجت في هذه المواضع عن مقتضى الظاهر؛ فقد قرر ابن هشام (ت٧٦١هـ) ﷺ في مغني اللبيب أن صفات الذم إذا نفيت على سبيل المبالغة لم ينتف أصلُها؛ واختار تبعًا لابن مالك –رحمهما الله– أن فعّالاً هنا ليس للمبالغة بل للنسب؛ أي: لا يُنْسَبُ إليه ظلمٌ أصلاً، فيكونُ من باب: بَزَّاز وعَطَّار، كأنه قيل: لا يُنسب إليه ظلم البتّةَ، كقوله امرئ القيس[٢]:

وَلَيسَ بذِي رُمحٍ فيَطعُنني بِهِ وَلَيسَ بذِي سَيْفٍ وَليسَ بنَبّالِ

والمعنى: ما ربك بذي ظلم؛ لأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا[٣].

وقد اتضح لك أن "فَعَّالاً" قد لا يُراد به التكثيرُ كقوله الشاعر طَرَفَةَ[٤]:

ولَسْتُ بِحَلاَّلِ التِّلاعِ مَخافَةً ولكنْ متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

والتلاع: ما ارتفع من الأرض، ويسترفد القوم: يطلبون الرفد، وهو العطاء، فطرفة بن العبد هنا يريد أنني لا أسكن الأماكن المرتفعة بعيدًا عن طرق الأضياف، فهو يريد أنه لا يَحُلُّ أي لا يسكن التلاعَ قليلاً ولا كثيرًا؛ لأنه يمدح نفسه بالإكرام.

أما والاستعمال القرآني قد تكرر، ورأيت شواهد ذلك في العربية واضحة، فلنجعل ما سبق قاعدة كاملة، وليس استثناء، فنقول:

قاعدة: ترد صيغة (فعال) إما للمبالغة، وإما للنسبة على حسب السياق:

---

(١) تفسير المنار (٥/ ٣١٣).

(٢) ديوان امرئ القيس (ص: ١٣٧).

(٣) مغني اللبيب (ص: ١٥٠).

(٤) ديوان طرفة (ص: ٢٤).

وناسب ذلك جدًّا أن يُمدح الله ﷻ به؛ لأن نفي الظلم بصيغة (فعال) يراد به معنى الكثرة لا المُبالغَة، ولكنه لَمَّا كان مقابَلاً بالعباد وهم كثيرون ناسب أن يُقابَلُ الكثيرُ بالكثير، ويقابل ذلك أنّه تعالى قالَ: «عَلاّمُ الغُيوب» فقابَلَ صيغةَ فَعّال بالجَمع، وقالَ في آية أخرى «عالِمِ الغيبِ»؛ فقابَلَ صيغةَ فاعِلِ الدّالّة على أصل الفعل بالواحد، وأشار إلى ذلك السّيوطي ﷺ في الإتقان[١].

قاعدة: توجيه تأويل القرآن إلى الأشهرِ من اللغات أولى من توجيهه إلى الأنكر (الأغرب، أو الأبعد) ما وُجد إلى ذلك سبيل[٢]:

ومن أمثلة ذلك تفسير الرجاء بمعنى الخوف؛ فإن ذلك مما لا يُعلم لغة، وقد اعترض على هذا التفسير الطبري ﷺ في تفسير قوله تعالى ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فزعم بعضهم أن معناه: وتخافون من الله ما لا يخافون، أخذًا له من قول الله جل ذكره: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجاثية: ١٤]، بمعنى: لا يخافون أيام الله.. قال الطبري ﷺ: "وغير معروف صرف "الرجاء" إلى معنى "الخوف" في كلام العرب، إلا مع جحدٍ سابق له، كما قال جل ثناؤه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [سورة نوح: ١٣]، بمعنى: لا تخافون لله عظمة، وكما قال الشاعر[٣]:

لا تَرْتَجِي حِينَ تُلاقِي الذَّائِدَا أَسْبُعَةً لاقَتْ مَعًا أَمْ وَاحِدَا

وكما قال أبو ذؤيب الهُذَليّ[٤]:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[٥]

ويؤكد الطبري ﷺ على هذه القاعدة، وهو يرد على من يظن أن (ثم) ربما جاءت بمعنى الواو في قوله تعالى جده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

فقال: "فإن ظنَّ ظانٌّ أن العربَ إذ كانت ربما نطقت بـ"ثم" في موضع"الواو" في ضرورة شعره، كما قال بعضهم:

سَأَلْتُ رَبِيعَةَ: مَنْ خَيْرُهَا أَبًا ثُمَّ أُمًّا؟ فَقَالَتْ: لِمَهْ؟

بمعنى: أبًا وأمًّا... فإن ذلك بخلاف ما ظن. وذلك أن كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذّ من لغاتها، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهومٌ ووجه معروف"[٦].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٢٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٢/٦٢٠).

(٣) البيت بلا نسبة. انظر: تهذيب اللغة (١١/١٢٥).

(٤) جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٧).

(٥) تفسير الطبري (٩/ ١٧٤).

(٦) تفسير الطبري (١٢/ ٣٢٢).

واسمح لي أن أخبرك أن ما قرره الطبري ﵀ من أن معنى "﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [سورة نوح: ١٣] لا تخافون لله عظمة" تفسير بالنتيجة لا بالمعنى الحرفي، فإن الآية تعني: لماذا لا تعملون على ما يظهر أنكم ترجون عظمة الله، وذلك يعني أنكم لا تخافون حسابه، فالأصل تفسير الكلمة بمعناها الظاهر.

قاعدة مقابلة: قد يوجد في القرآن الكريم ما يُفَسَّرُ على المعنى القليل من لغة العرب:

مثال ذلك: قولُه تعالى ذكره: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فكلمة السماوات تُحمل على الأشهر في اللغة، لا على الأقل، وهو السقف.

ولكن قوله: (عرضنا... فأبين أن يحملنها) مستشكَلٌ؛ إذ كيف تأبى السماوات والأرض شيئًا طلبه الله ﷻ، وهما قد قالتا: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ثم إذا كانت الأمانة تتضمن التوحيد، فمن المعلوم أن تسبيح السماوات والأرض أعظمُ من تسبيح بني آدم من حيث العدد والخضوع، حتى قال الطاهر بن عاشور ﵀ في بيان الإشكال الذي تثيره الآية: «وقد عُدِّت هذه الآية من مشكِلات القرآن، وتردد المفسرون في تأويلها ترددًا دلَّ على الحَيرة في تقويم معناها»[1]، وفي جواب حل هذا الإشكال قيل:

القول الأول: العرض هو الإظهار، والمعنى: إنا أظهرنا الأمانة وتضييعها على أهل السماوات وأهل الأرض من الملائكة، والإنس، والجن ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ أي: أن يحملن وزرها، كما قال ﷻ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ قال الحسن ﵀: المراد: الكافر، والمنافق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا﴾ لنفسه ﴿جَهُولٗا﴾ بربه، فخلاصة معنى القول الأول: أظهر الله الأمانة وتضييعها على المخلوقات، فأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملن وزرها، وحملها الإنسان الكافر.

القول الثاني: الأمر حقيقةٌ، فقد عرض على السماوات والأرض والجبال الأمانةَ وتضييعَها، وهي الثواب والعقاب، أي: أظهر لهن ذلك، فلم يحملن وزرها، وأشفقت، وقالت: لا أبتغي ثوابًا ولا عقابًا، وكلٌّ يقول: هذا أمرٌ لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أُمرنا به، وسُخِّرنا له...وهذا العرض عرض تخييرٍ، لا إلزام، والعرض على الإنسان إلزام.

القول الثالث: قال القفال ﵀، وغيره: العرض في هذه الآية ضربُ مثلٍ، أي: أن السماوات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها، لثقل عليها تقلد الشرائع، كقوله: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١].

(١) التحرير والتنوير (١٢٦/٢٢).

القول الرابع: من الأقوال الوجيهة في تأويلها أن معنى (حملها): خانها، كما قال الزمخشري ﷺ: «من قولك: فلان حامل للأمانة، ومحتمل لها، تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها؛ حتى تزول عن ذمته، ويخرج عن عهدتها؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتَمَن عليها، وهو حاملها، ألا تراهم يقولون: ركبته الديون، ولي عليه حق؟ فإذا أداها لم تبق راكبةً له، ولا هو حاملاً لها، فمعنى ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فَأَبَيْنَ إلا أن يؤدينها (فَأَبَيْنَ أن يَخنَّها)، وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها»[1].

وفي هاتين القاعدتين يقول الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله-:

تَوْجِيهُنَا القُرْآنَ نَحْوَ الأشْهَرِ ... أوْلَى مِنَ التَّوْجِيهِ نَحْو الأنْكَرِ
مِنَ اللُّغَاتِ، فَاجْتِنَابُ الأغْرَبِ ... وشِبْهِهِ أحْرَى بِذِكْرٍ عَرَبِي
وقَدْ يُرى فِي الذِّكرِ مَا قَدْ فُسِّرا ... مِنْ لُغَةِ العُرْبِ عَلَى مَا نَدَرَا

وهنا قد يرد التساؤل التالي: ما سبب احتياجنا لتأويل بعض الألفاظ القرآنية بالمعنى النادر مع أن القرآن نزل بلسان عربي مبين بيانًا للناس جميعهم؟

والجواب:

١) لبيان مزية المستنبطين على غيرهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

٢) لبيان تصرفات العرب في كلامها، ومجاراة فصحائها وبلغائها، وليستوعب القرآن الثابت من لغتها ولو قلّ، فيكون القرآن الكريم وعاء حافظًا للغة العرب (مشهورها وشيء لا بأس به من نادرها).

٣) ومن الأسباب الجواب العام في احتياج القرآن للتفسير: "القرآن إنما أنزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر "[2].

من مؤيدات وجود الإعراب أو المعنى في النظم القرآني جاريًا على القلة من تصرفات العرب:

ما أورده الزركشي ﷺ من ضرورة تجنب الشاذ من الأعاريب –جمع إعراب–[3] فيه تفصيل لا بد منه:

فإن كان المراد بالشاذ اللغات المنكرة أو المستقبحة فنعم، وإن كان المراد الشائعة عند بعض العرب دون جمهورهم فلا...إذ قد توجد في القرآن الكريم، ومن أبرز الأدلة المؤيدة لذلك:

---

(١) الكشاف (٣/ ٥٦٤)، ونقله النسفي (٣/ ٣١٧) مختصرًا.
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٤).
(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٠٤).

١) وجود الغريب في القرآن: فقد وُجِدَتْ بعض الألفاظ التي صنفت ضمن ما اصطلح على تسميته بالغريب أو الوحشي في القرآن الكريم إجماعًا كلكمة غرابيب، جُدَد، وإذ أقر العلماء إجماعًا بوجود الغريب فما المانع من أن يكون المعنى أو الإعراب في بعض الكلمات القرآنية جاريًا على سننه، وبناء على هذه القاعدة النافعة نستطيع أن نستوعب نفسيًّا وعلميًّا تخريج بعض الإعراب القرآني على ما كان قليلاً غير فاشٍ مثل: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة:٦] بالجر إن أعربناها على المجاورة، وكإعراب قراءة حمزة ﴿وَٱلْأَرْحَامِ﴾ [النساء: ١]بالخفض في الآية الأولى من سورة النساء.

٢) وجود الأصوات النادرة في قراءة القرآن من لغات (لهجات) العرب مما لا يوجد عند عامة قبائل العرب كالإمالة (الميل نحو الكسر)، وتخفيفات الهمز وهي لغة (لهجة) أهل الحجاز، وإشمام الحرف صوت غيره، كما في قراءة حمزة والكسائي وخلف في الصاد الساكنة التي بعدها دال، أو في كلمة الصراط...

٣) وجود غرائب الإعراب المرضية ولو عند قبائل دون غيرها، ومن ثم عند بعض النحاة دون سواهم: وذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة:٧١] "أي عمي كثير منهم وصم بعد تبين الحق لهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فارتفع ﴿كَثِيرٌ﴾ على البدل من الواو، وقال الأخفش سعيد: كما تقول رأيت قومك ثلثيهم، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ أي العمي والصمُّ كثر منهم، وإن شئت كان التقدير العمي والصم منهم كثير، وجواب رابع أن يكون على لغة من قال: أكلوني البراغيث...ومن هذا المعنى قوله : ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣] "[(١)]، وعلى اللغة الأخيرة فهي قليلة كما قال سيبويه ﷺ، فأقر سيبويه ﷺ بوجود لغة قليلة الإعراب في القرآن الكريم.

مثال للتأويل على اللغة القليلة من لغة العرب، وهو مثال يطعن به بعض الشانئين في عربية القرآن الكريم:

هذا مثال من أبرز الأمثلة على أن الغريب من الإعراب قد يرد في القرآن لتحقيق الغايات المذكورة آنفًا: تأويل البصريين وفي مقدمتهم سيبويه ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

فمن الناس من ينكر أو يسمع من ينكر على القرآن الكريم إعراب كلمة ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾، والجواب على ذلك:

ذكروا في إعراب كلمة ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ أوجهًا متعددة كلها غريبة على من لم يتعمق في العربية، من أهمها هذه الوجوه:

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٣).

الوجه الأول: رُفِعَت كلمة ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ على الابتداء، وخبرها محذوف، والنية بها التأخير عما في حيز ﴿إن﴾، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون، كذلك كقوله:

وإلَّا فـــــاعلموا أنَّا وأنـــــتم بغـــاةٌ مـــا بقينـــا في شـــقاق

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك.

وقد تسأل: لماذا جعل كلمة ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ بين كلمات الجملة الأولى، ولم يؤخرها مع أن حقها التأخير بناء على هذا الإعراب؟

الجواب: للفت النظر، فجعلها كالمعترضة ليدلَّ بذلك على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يُتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح كان غيرُهم أولى بذلك.

الوجه الثاني: يجوز أن يكون ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مبتدأ جديد، والجملة قبله انتهت، وكلمة ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ عطفها على ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾، وقوله ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ خبرهما، وخبر ﴿إن﴾ مقدَّرٌ دلَّ عليه خبر الجملة الثانية، كقوله:

نحـــن بمـــا عنـــدنا، وأنـــت بمـــا عنـــدك راضٍ والـــرأي مختلـــف

وتقدير البيت: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ، فدل خبر الثانية على خبر الأولى، وهذا أسلوب عربي، فمن اعترض عليه، فإنما يبدي جهله، ويفخر به.

وتقدير الآية على هذا الإعراب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ثم سكت ولم يذكر الخبر، وابتدأ جملة جديدة، فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ ...﴾، وخبر الجملة الأولى دل عليه خبر الجملة الثانية.

الوجه الثالث: قيل: ﴿إِنَّ﴾ بمعنى (نعم) وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء[1]، وهذا أسلوب عربي معروف.

فهذه الوجوه الإعرابية في إعراب كلمة ﴿ٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ غريبة بالنسبة لما هو أشهر منها، ولكنها معروفة عربيًّا.

وفي رأيي: أن وجه الغرابة هنا هو ما قدمنا من أن من مقاصد القرآن المجيد أن يحافظ على أصول لغة العرب في أوجهها الإعرابية وتصرفاتها الأسلوبية، كما أن لذلك نكتة من حيث المعنى فالصابئون ليسوا كالفئات الثلاث لا كمًّا ولا كيفًا، فاستحقوا الإفراد، كما قال الكرماني رحمه الله: "قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔينَ﴾ [البقرة:٦٢]، وقال في الحج: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [الحج: ١٧]، وقال في المائدة: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٦٩]؛ لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدمون على

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٣٤٩).

النصارى في الزمان لأنهم كانوا قبلهم، فقدمهم في الحج، وراعى في المائدة بين المعنيين وقدمهم في اللفظ، وأخرهم في التقدير؛ لأن تقديره والصابئون كذلك"(١).

قاعدة: لا بد من" اتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم"

وهذه القاعدة وضعها أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله، فإن كان للعرب في لسانهم عُرْفٌ مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجرى في فهمها على ما لا تعرفه"(٢):

ومما يوضح ذلك القواعد الآتية:

قاعدة: يجب وصل معاني الكلام بعضه ببعض ما وجد إلى ذلك سبيل:

ومن الأمثلة التطبيقية لهذه القاعدة:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧] فقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ على أربعة أقوال:

القول الأول: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل الله يفتيكم فيهن، وفيما يتلى عليكم؛ فقد كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في أول السورة في الفرائض اللاتي لا تؤتونهن ما كتب الله لهن، فعن سعيد بن جبير رحمه الله قال: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ. لا يرث الرجل الصغير، ولا المرأة، فلما نزلت آية المواريث في سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا: يرث الصغير الذي لا يعمل في المال، ولا يقوم فيه، والمرأة التي هي كذلك، فيرثان كما يرث الرجل الذي يعمل في المال! فرجوا أن يأتي في ذلك حدثٌ من السماء، فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتي حدث، قالوا: لئن تم هذا إنه لواجب ما منه بدٌّ! ثم قالوا: سلوا! فسألوا النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في أول السورة ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

القول الثاني: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وفيما يتلى عليكم في الكتاب في آخر سورة النساء، وذلك قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

---

(١) أسرار التكرار في القرآن (ص:٣١)، وانظر: الصفدية (٢/ ٣٠٤)، وذكر رائد علم البيان القرآني في عصرنا الدكتور السامرائي أن التقديم والتأخير مرتبط بالسياق، ففي آية سورة المائدة جاءت الآيات بعدها تتناول عقيدة النصارى في المسيح وفي التثليث، وكأن النصارى لم يؤمنوا بالتوحيد، فلما كان الكلام في ذم معتقدات النصارى اقتضى تأخيرهم عن الصابئين، ولم يذكر هذا الأمر في سورة البقرة. انظر: أسرار البيان في التعبير القرآني (ص: ٣٦). وأنت ماذا ترى؟

ألا ترى ضعف هذا التوجيه؟ ألا ترى أن سورة الحج ليس فيها ذكر للتثليث؟ ألا تجد سورة البقرة يذكر فيها الله من اتخذ ولدا؟.

(٢) الموافقات (٢/ ٨٢).

القول الثالث: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ وفيما يتلى عليكم في الكتاب يعني: في أول هذه السورة وذلك قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، فعن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة زوج النبي ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] قالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها.. فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة ﵂: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت: والذي ذكر الله ﷻ أنه يتلى في الكتاب: الآية الأولى التي قال فيها: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣].

وبين الطبري ﵀ أنه على هذه الأقوال الثلاثة تكون ﴿ما﴾ التي في قوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ في موضع خفض بمعنى العطف على الهاء والنون التي في قوله: ﴿يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، فكأنهم وجهوا تأويل الآية: قل الله يفتيكم أيها الناس في النساء وفيما يتلى عليكم في الكتاب.

القول الرابع: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في قوم من أصحابه سألوه عن أشياء من أمر النساء، وتركوا المسألة عن أشياء أخر كانوا يفعلونها، فأفتاهم الله ﷻ فيما سألوا عنه، وفيما تركوا المسألة عنه، فعن مُحَمَّد بن أبي موسى في هذه الآية قال: استفتوا نبي الله ﷺ في النساء وسكتوا عن شيء كانوا يفعلونه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ويفتيكم فيما لم تسألوا عنه قال: كانوا لا يتزوجون اليتيمة إذا كان بها دمامة ولا يدفعون إليها مالها فتنفق، فنزلت: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قال: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ قال: كانوا يورثون الأكابر ولا يورثون الأصاغر، ثم أفتاهم فيما سكتوا عنه فقال: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

وعلى هذا القول: الذي يتلى علينا في الكتاب هو قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ الآية، والذي سأل القومُ، فأجيبوا عنه في يتامى النساء اللاتي كانوا لا يؤتونهن ما كتب الله لهن من الميراث عمن ورثنه عنه.

ورجح الطبري ﵀ قولَ من قال: معنى قوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وما يتلى عليكم من آيات الفرائض في أول هذه السورة وآخرها، واستبعد أن يكون الكلام عن صدقات يتامى النساء، لأن الصداق ليس مما كتب للنساء إلا بالنكاح فما لم تنكح فلا صداق لها قِبَل أحد، وإذا لم

يكن ذلك لها قِبَل أحد لم يكن مما كتب لها، واستبعد ما ذكره مُحَمَّد بن أبي موسى لخروجه من قول أهل التأويل، ولبعده مما يدل عليه ظاهر التنزيل، وذلك لأن المعنى على كلامه: قل الله يفتيكم فيهن في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن دون دليل على هذا المعنى... وإذا كان ذلك كذلك كان وصل معاني الكلام بعضه ببعض أولى ما وجد إليه سبيل.

وإذ كان ذلك كذلك فتأويل الآية: ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في كتاب الله الذي أنزله على نبيه ﷺ في أمر يتامى النساء اللاتي لا تعطونهن ما كتب لهن يعني: ما فرض الله لهن من الميراث عمن ورثنه[(١)].

وعندي أن المعاني تصح، وأن القول الرابع متصل بما بعده كما ترى.

قاعدة: صيغة المضارع إما أن تدل على كثرة التكرار ومداومة ذلك الفعل، وإما على حكاية المشهد كأنه واقع، وإما عليهما معًا، إلا أن يدل السياق على غير ذلك:

أمثلة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، ومن أبرز الأمثلة التي تدل على ذلك ما قرره الطاهر بن عاشور رحمه الله عن الفعل المضارع ﴿يسأل﴾ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ٦] فقال: "ومجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد"[(٢)]، وقد أكد على هذه القاعدة في غير ما موضع[(٣)].

قاعدة: يتفق المعنى الشرعي والمعنى اللغوي غالبًا في القرآن الكريم كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

قاعدة: إن اختلف المعنى الشرعي عن اللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي؛ لأن القرآن نزل لبيان الشرع، إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة:٨٤] فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة، فيقدم المعنى الشرعي، فهذه الآية تبين أن صلاة الجنازة لا تجوز على من عُلِم نفاقه "وذلك غالبًا أمرٌ غيبي أطلع الله نبيه ﷺ عليه"، وهل يجوز له الدعاء؟

إن قلنا بأن هذه الآية تدل على الحقيقة الشرعية من الصلاة، فالدعاء يحتمل جوازه، ولكن الذي منع منه بعد موت المنافق قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، والنفاق الذي منعنا من الصلاة على أهله إنما هو النفاق العقدي، ولا يطلع عليه من بعد النبي ﷺ؛ لأنه يعرف بالوحي، ولكن قد تترك الصلاة على من كثرت خبائثه تعزيرًا وتحذيرًا على تفصيل معلوم في الفقه.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢٩٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٤٨/٩).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٩٩/٥)، (٦٤/٦)، (٤٩/٩).

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء كما هو المعنى اللغوي بدليل ما جاء عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم، صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[١].

قاعدة: القرآن حمال وجوه، فما احتمله جاز به التفسير، لا ما حُمِّله أو استكره عليه:

فإذا كانت الآية محتملةً لأقوالٍ متعددةٍ وجيهةٍ حُملت عليها، واحتمالها لذلك: إما بتعابيرها وكلماتها، وإما لورود عدة قراءاتٍ ثابتةٍ في الآية تتضمن تعابير لغوية معنوية[٢].

ومن أسباب تقرير هذه القاعدة:

أن القرآن يحوي معاني أكثر من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، فما وقع إلينا من تفسيراتٍ مروية عن النبي ﷺ لآياتٍ نرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب فإننا نقبله ونسلم له، إذ إننا بالتأمل نعلم أن الرسول ﷺ ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن[٣].

ولذا قال سفيانُ بنُ عيينةَ رحمه الله: ليس في تفسير القرآن اختلافٌ إذا صحَّ القول في ذلك، وقال: أيكون شيء أظهر خلافًا في الظاهر من ﴿الْخُنَّسِ﴾؟ قال عبد الله بن مسعود ﷺ: هي بقر الوحش، وقال عليٌّ ﷺ: هي النجوم. قال سفيان رحمه الله: وكلاهما واحد؛ لأن النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، والوحشية إذا رأت إنسيًّا خنست في الغيطان وغيرها، وإذا لم تر إنسيًّا ظهرت، قال سفيان رحمه الله: فكلٌ خُنَّس[٤].

وفي هذه القاعدة يقول الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله–:

والوَجْهُ في النصِّ إذا ما احْتَمَلَهْ جازَ به التفسيرُ لاَ ما حُمِّلَهْ

قاعدة: الأصل الجمع بين المعاني التي تحتملها الآية[٥]:

اللغة العالية للقرآن تجمع معاني متعددة متجددة؛ فالقرآن كلام ربنا الأعلى ﷻ، وعلى هذا بنيت مشروعي في التفسير، وهو الذي أسميته (بصائر المعرفة القرآنية)، حيث أجمع بين المعاني المختلفة التي يذكرها المفسرون ما دامت غير متناقضة[٦].

وأشار الطبري رحمه الله إلى ذلك فقال: «والكلمة إذا احتملت وجوهًا لم يكن لأحدٍ صرفَ معناها إلى بعض وجوهها دون بعضٍ إلا بحجةٍ يجب التسليم لها»[٧]، وفي التطبيقات الطبرية خيرٌ طيب

---

(١) أصول التفسير للعثيمين (ص: ٢٧)، والحديث رواه البخاري (١٤٩٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٥١).

(٣) التحرير والتنوير(١/ ٥٦).

(٤) السنة لمحمد بن نصر المروزي (ص: ٢).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٥٦).

(٦) وقد طبع من هذا المشروع بعض الإصدارات، كتفسير سورة النساء بمستوياته الثلاثة (المفصل، والوسيط، والوجيز)، يسر الله إنجازه.

(٧) تفسير الطبري (١/ ١٧١).

كثيرٌ من ذلك، فمنها: قوله تعالى مجده: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، فقد ذكر فيها الطبري ﷺ قولين ثم قال جامعًا بينهما: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ لم يخبرنا أنه عنى غاشية القيامة، ولا أنه عنى غاشية النار. وكلتاهما غاشية، هذه تغشى الناس بالبلاء والأهوال والكروب، وهذه تغشي الكفار باللفح في الوجوه، والشُّواظ والنحاس، فلا قول في ذلك أصحّ من أن يقال كما قال جلّ ثناؤه، ويعمّ الخبر بذلك كما عمه"[١].

وكنت أجد أحيانًا تطبيق هذه القاعدة يتخلف عند الطبري ﷺ دون مبررٍ واضح، فمن أمثلة ذلك قولُه تعالى ذكره: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فقد اختلف «أهل التأويل في معنى وَصْفِ الله السماوات والأرض بالرتق، وكيف كان الرتق؟ وبأي معنى فتق»[٢] وذكروا فيها أربعة تآويل:

التأويل الأول: ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ ليس فيهما ثُقبٌ، بل كانتا ملتصقتين، وقوله: ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ فصدعناهما وفرجناهما[٣]، عنى بذلك أنهما كانتا ملتصقتين، ففصل الله ﷻ بينهما بالهواء، فرفع السماء ووضع الأرض... وَرَدَ هذا المعنى عن ابن عباس، والحسن، وقتادة رحمهم الله.

التأويل الثاني: المعنى: مرتتقة طبقة، ففتقها الله ﷻ، فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة، ففتقها، فجعلها سبع أرضين، ورد هذا المعنى عن مجاهد ﷺ، وقال: ولم تكن الأرض والسماء متماستين... فقد نفى مع أنه لا يوجد في الآية ما ينفي ما ذكره.

التأويل الثالث: بل عنى بذلك أن السماوات كانت رتقًا لا تمطر، والأرض كذلك رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات، وقد ورد هذا المعنى عن عكرمة ﷺ، قال: وهو قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

التأويل الرابع: ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ لأن الليل كان قبل النهار، ففتق النهار[٤].

وبعد أن ذكر الطبري ﷺ هذه المعاني الأربعة رجح الثالث، مع أن المعاني الأربعة كلَّها داخلة محتملة، وسعد بهذا التوفيق بين المعاني جميعًا الطاهر بن عاشور ﷺ حيث قال: "وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ جَمِيعَ مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ مَعَانِي الرَّتْقِ وَالْفَتْقِ؛ إِذْ لَا مَانِعَ مِنِ اعْتِبَارِ مَعْنًى عَامٍّ يَجْمَعُهَا جَمِيعًا، فَتَكُونُ الْآيَةُ قَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَى عِبْرَةٍ تَعُمُّ كل النَّاس، وعلى عِبْرَةٍ خَاصَّةٍ بِأَهْلِ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ، فَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّةِ"[٥].

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٣٨١).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ١٩).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ١٩).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ١٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٦).

ولكن الطاهرَ ﷺ ذكر أن المفسرين كانوا غافلين عن تأصيل هذا الأصل، وفيما ذكره نظرٌ؛ فقد رأيتَ حضور ذلك في التنظير والتطبيق الطبري.

وقد شعر المفسرون بالجمال القرآني المبين عندما يكون للكلمة أو للآية أكثر من احتمال في معناها، فقال سيد من سادات المؤولين، وهو الطاهر بن عاشور ﷺ مشيرًا إلى معانٍ متعددة في قوله جل ذكره: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ٢]:

"ويَجُوزُ أنْ يُجْعَلَ الخَبَرُ هو قَوْلُهُ: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ مَعَ ما انْضَمَّ إلَيْهِ مِنَ التَّفْرِيعِ والتَّعْلِيلِ، أيْ هو كِتابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ فَكُنْ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ بِهِ، فَإنَّهُ أُنْزِلَ إلَيْكَ لِتُنْذِرَ بِهِ الكافِرِينَ وتُذَكِّرَ المُؤْمِنِينَ، والمَقْصُودُ: تَسْكِينُ نَفْسِ النَّبِيءِ ﷺ، وإغاظَةُ الكافِرِينَ، وتَأْنِيسُ المُؤْمِنِينَ، أيْ: هو كِتابٌ أُنْزِلَ لِفائِدَةٍ، وقَدْ حَصَلَتِ الفائِدَةُ، فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ إنْ كَذَّبُوا. وبِهَذِهِ الِاعْتِباراتِ وبِعَدَمِ مُنافاةِ بَعْضِها لِبَعْضٍ يُحْمَلُ الكَلامُ عَلى إرادَةِ جَمِيعِها، وذَلِكَ مِن مَطالِعِ السُّوَرِ العَجِيبَةِ البَيانِ"[(١)].

ومن أبرز ما يحمل على عدة معانٍ لأنه يحتملها: المشترك:

وقد قرر ذلك الطاهر بن عاشور ﷺ تقريرًا ضافيًا، فبين أنه يُحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات وسواء أكانت المعاني حقيقية أم مجازية محضة أم مختلفة.

مثال استعمال اللفظ المفرد في حقيقته ومجازه: قوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الحج:١٨] فالسجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض، ومعنى مجازي وهو التعظيم، وقد استعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين لا محالة[(٢)].

ومثال استعمال المركب المشترك في معنييه: قوله تعالى ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١] فمركب (ويل له) يستعمل خبرًا، ويستعمل دعاء وقد حمله المفسرون هنا على كلا المعنيين[(٣)].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] قال فيها الطبري ﷺ:

"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر بالإنفاق في سبيله بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وسبيله: طريقه الذي شرعه لعباده وأوضحه لهم ومعنى ذلك: وأنفقوا في إعزاز ديني الذي شرعته لكم بجهاد عدوكم الناصبين لكم الحرب على الكفر بي، ونهاهم أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة فقال: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ وذلك مثل، والعرب تقول للمستسلم للأمر: أعطى فلان بيديه... فمعنى قوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ ولا تستسلموا للهلكة فتعطوها أزمتكم فتهلكوا، والتارك النفقة في سبيل الله عند وجوب ذلك عليه

(١) التحرير والتنوير (١٢/٨).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٩٩/١).

(٣) ينظر: تفسير الثعالبي (١٨٨/١).

مستسلم للهلكة بتركه أداء فرض الله ﷻ عليه في ماله، وكذلك الآيس من رحمة الله لذنب سلف منه ملق بيديه إلى التهلكة لأن الله ﷻ قد نهى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِـن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّـهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِـرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وكذلك التارك غزو المشركين وجهادهم في حال وجوب ذلك عليه في حال حاجة المسلمين إليه مضيع فرضًا ملق بيده إلى التهلكة... ثم قرر الطبري ﵀ أن هذه المعاني كلها يحتملها قوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَـةِ﴾ ولم يكن الله ﷻ خص منها شيئًا دون شيء فالصواب حملها عليها"[(١)].

وفي هذه القاعدة يقول الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله–:

والأصـــلُ جمْـــعُ مـــا مِـــنَ المعـــاني تَحْتَمِـــــلُ الآيُ بـــــلا بُرْهـــــانِ

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٠٦).

أسئلة تقويمية:

س١: لماذا صارت اللغة العربية مصدرًا للتفسير؟

س٢: اذكر أمثلة توضح أهمية اللغة العربية في تفسير القرآن الكريم.

س٣: ما الأهداف العامة التي لأجلها نزل القرآن بلسان عربي مبين؟

س٤: ما المراد من علم العربية في أصول التفسير؟

س٥: ما أهمية معرفة الفروقِ اللغويةِ الدقيقة؟

س٦: اذكر أهم المصادر اللغوية التي يُرجع إليها لمعرفة الدلالات والجذور اللغوية.

س٧: اذكر بعض القواعد التفسيرية اللغوية.

س٨: اذكر بعض الأمثلة على قاعدة: "الأصل حمل الكلام على مقتضى الظاهر معنىً ونظمًا".

س٩: ما سبب تأويل بعض الألفاظ القرآنية بالمعنى النادر مع أن القرآن نزل بلسان عربي مبين؟

س١٠: اذكر مثالًا للتأويل على اللغة القليلة من لغة العرب؟

س١١: اذكر مثالًا على قاعدة: "يجب وصل معاني الكلام بعضه ببعض ما وجد إلى ذلك سبيل".

س١٢: إذا كانت الآية محتملةً لأقوالٍ متعددةٍ، هل تحمل عليها؟

س١٤: ما المشترك؟ وهل يحمل على ما يحتمله من المعاني؟